الحرب والسلام

عند رسول الإسلام

لماذا هذا الكتاب؟

الحمد لله الأول بلا ابتداء الآخر بلا انتهاء، وأصلي وأسلم على أجمع الخَلق لكل وصف حميد، وخُلُق رشيد، وقول سديد، شيمته الحياء، وميزته الوفاء، وأداته التعقل، وردّ فعله الهدوء والتأمل، سيدنا محمد صلى الله عليه، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الطيبين، وكل من اقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد..،

كان رسول الله ﷺ مثلاً أعلى للإنسانية الكاملة، وكانت شخصيته الخُلُقية شخصية كاملة سامية متعددة النواحي، وقد اجتمع فيه محاسن الآداب ومكارم الأخلاق ما لم يجتمع لغيره من الناس؛ سواء في شبابه وفي رجولته؛ سواء قبل بعثته وبعدها، وقد أجمع المتقدمون والمتأخرون من الرواة والمؤرخين في الشرق والغرب على أنه عُرِف في صباه وشبابه بالصدق والأمانة، والتمسك بالفضائل، والترفع عن الرذائل وقد أعده الله تعالى للنهوض بأعباء الرسالة ونشر الدين الحنيف بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد قال رسول الله ﷺ مبيناً الغرض الأساسي من بعثته النبوية السامية: **(إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق)**[1]، ومكارم الأخلاق هذه هي النظام الأساس في حفظ حقوق الآخرين، وعدم الاعتداء، وسلامة المجتمع، وبالتالي التقليل من الخسائر بما يضمن للآخرين التعايش بالصورة الإنسانية الكريمة.

وسيرة الرسول ﷺ الواردة في صحيح السنة المطهرة تعتبر في ميزان العقل البشرى والعلمي معجزة، لا تستطيع الأمم جميعها في الحاضر والمستقبل أن تفعل مثلها؛ إذ لم

---

(1) رواه أحمد في مسنده: (9187).

obeikandl.com

يحفظ لنا التاريخ من بين جميع الأمم، حياة رجل منذ طفولته إلى وفاته، مثلما حفظه المسلمون عن رسولهم ﷺ بكل دقة، وأمانة وموضوعية.

والمتتبع لأحكام السُنة النبوية ووصايا الرسول ﷺ في الحروب وسيرته العطرة يري أن الخُلُق العظيم هو جوهر رسالته ﷺ.

فقد عاش رسول الله ﷺ أخلاقياً منذ طفولته إلى أن لقي ربه، فقد كان قومه ينادونه بصفة نادرة في ذلك الزمان وقبل أن يبعث: فقد نادوه وعرف بينهم

"**بالصادق الأمين**"؛ فهو الصادق إذا ذُكِر الصدق، وهو الوفي الكريم، الزاهد الشجاع، المتواضع، الرحيم، البار، الحكيم، الأمين، الوفي، العابد....

كان الرسول ﷺ هذا كله وكان فوق هذا، فكانت أخلاقه فوق الصعاب، وفوق كل الظروف والتقلبات التي تأتي بها الأيام، فقد كان قادراً على أن يلتزم الموقف الأخلاقي المناسب، مهما تكن اللحظة التاريخية حرجة وحاسمة،إنه نبي يُشَرع بسلوكه، وينطلق من منهج واضح وليس من ردّ فعل تُمليه أو تفرضه أية ضغوط أو ظروف [1].

ولقد سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خُلق رسول الله فقالت:

"**كان خُلقه القرآن**"[2]، وسُئلت مرة أخري فقالت: لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً.....ولكنه يعفو ويصفح وما خُير ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً"[3].

وكما روي الترمذي والطبراني قوله ﷺ "اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال، والأهواء والأدواء"[4].

---

(1) عبد الشافي محمد عبد اللطيف: أوائل المؤلفين في السيرة النبوية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سلسلة دراسات اسلامية، عدد 114، 2005 م / 1426 هـ، ص 6.

(2) رواه أحمد (6/ 91، 163، 216)، النسائي في الكبرى (6/ 412).

(3) أنظر، البداية والنهاية (6 / 36).

(4) الترمذي (5/ 575) وابن حبان، والحاكم، والطبري.

هذا ما جبله الله عليه من الأخلاق اللنبيلة الأصيلة التي لم يكن أحد من البشر، ولا يكون على أجمل منها، وشرع له الدين العظيم الذي لم يُشَرعه لأحد قبله ولا بعده، فلا رسول بعده ولا نبي ﷺ؛ فكان ﷺ فيه من الحياء والكرم والشجاعة والحلم والصفح والرحمة وسائر الأخلاق الكاملة ما لا يُحَد ولا يمكن وصفه [1].

وقد بُعث الرسول ﷺ إلى الثقلين والمستوى الأخلاقي في الجزيرة العربية في الدرك الأسفل [2]، وسائر المعمورة أحوج ما تكون إلى هَدْيه ورِسالته [3] ولذا استطاع محمد ﷺ بأخلاقه السمحة أن يُحَوِل الهمجية إلى شجاعة، والطغيان إلى رحمة وعدل، مستمداً أفكاره السامية من لدُن عليم خبير؛ فصار الشر خيراً وتبدل الظلام إلى نور وهاج يضئ القلب والبصيرة.

وقد كانت سنة الرسول ﷺ والتعاليم التي جاء بها في أساسها، إعادة لإحقاق المبادئ الأخلاقية السامية التي أُهدِرت في زمن الجاهلية.

وفي الحرب ضرب الرسول الكريم أروع المثل على الرحمة والتفضل ومراعاة أعلى آدابها الإنسانية؛ ففي قتاله لا يَغدر [4] ولا يَفسد ولا يَقتل امرأة أو شيخا أو طفلاً، ولا يَتبع مُدبراً ولا يُجهز على جريح ولا يُمثِل بقتيل، ولا يسئ إلى أسير، ولا يلطم وجهاً، ولا يتعرض لمسالم.

والرسول ﷺ يوفي بالعهود والوعود التي يقطعها على نفسه ويشدد على نفسه إلى أقصى مدى حقناً للدماء.

---

(1) ابن كثير: شمائل الرسول، دار بن خلدون، بدون، ص 63.

(2) سيد قطب: معالم في الطريق، الاتحاد الإسلامي العالمي، ص 26.

(3) علي بن نفيع العلياني: أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، ط1، دار طيبة، الرياض 1985 م / 1406 هـ، ص 26.

(4) الغدر: الإخلال بالشيء وتركه، والغدر يقال لترك العهد، ومنه قيل: فلان غادر، وجمعه: غدرة، وغدار: كثير الغدر، والأغدر، وغدرت الشاة: تخلفت فهي غدرة انظر: اللسان (غدر).

وقد حصر الرسول ﷺ فكرة الحرب في أضيق الحدود ورفض كافة أشكال العدوان والبغي وإشاعة العدل والرحمة واحترام الإنسانية.

هذه هي الأصول التي وضعها الرسول ﷺ، والمستمدة من القرآن الكريم في الدعوة للإسلام التي تلتزم القواعد الأخلاقية السامية فقد كان الرسول ﷺ مثلاً أعلى للإنسانية الكاملة **والتي تتلخص في:**

المسالمة، الرحمة، العفو، التسامح، التزام العدل مع الأعداء، منع المثله والتشويه، العفو عند المقدرة، الشجاعة، الثبات والحزم، الوفاء، عدم الغدر الرأفة، الأمانة، الأمان، التواضع، حقن الدماء، التأليف والتأني، عدم المبادرة بالقتال، تكريم جثث القتلى، منع التخريب، منع الحرق بالنار، النهى عن قتل النساء والذرية، ضمان سلامة المدنيين، احترام الإنسانية، النبالة الشريفة، عدم الإساءة إلى البيئة، تأدية الواجب العملي في المعركة، مراعاة الأعراف الإنسانية، الحلم والصبر، العطف على الأسرى، إحقاق الحقوق،...الخ.

وهذه هي معادلة الأخلاقي الأول، وكلها جاءت محمد ﷺ تسعى فكان أكمل الناس خُلُقاً، وأزكاهم عملاً، وأطهرهم نفساً، وأعطرهم سيرة.

وفي هذه الدراسة سوف نقوم بعرض موضوعي لأخلاقيات الحرب عند الرسول محمد ﷺ معتمدين على الدراسات الموثوق فيها والموضوعية - قدر المستطاع - مع انتقاء الثمين من الغث في بعض الدراسات خاصة الاستشراقية أو العربية ممن كان لصاحبها ميول استشراقية أيضاً، وهي آراء تخدم الجزء الخاص بالرد على افتراءات البعض منهم.

وقد توخيت أن تكون معلومات هذه الدراسة جامعة بين السهولة والدقة، معتمداً على المصادر الأصلية في النقل متخيراً منها أدقها وأنسبها.

وآثرت الرجوع إلى الرواية المسندة المتصلة عن طريق الثقات الأثبات ممن شاركوا الرسول ﷺ فترات حياته ثم التابعون الذين عاصروا الصحابة وسمعوا منهم وحملوا عنهم ومن مدوني السيرة النبوية الأوائل.

ولم أدخر وسعًا عندي لتجلية حقيقة ناصعة شهد بها القاصي والداني عسى أن ننفض غبار الجهل عن أعين الجهلاء، ويعودوا إلي الحق القويم، ويتخلصوا من الأفكار المنحرفة، والمبادئ الهدامة.

هذا وقد خصصنا الفصل الأول لعرض نظرية الحرب والسلام في الشريعة الإسلامية؛ فهي بلا شك أرضية تفسر لنا الكثير من سلوكيات رسول الإسلام الذي كان خلقه القرآن.

أما الفصل الثاني فقد تناولنا فيه أخلاقيات الحرب عند رسول الإسلام ﷺ

فقد كان المنهاج النبوي الكريم يهتم بتهذيب الأخلاق حتى في ميادين النزال وهو ما سنتناوله بالعرض والدراسة والتحليل في ضوء السيرة النبوية العطرة.

وخصصنا الفصل الثالث لدرء بعض من شبهات علماء ومفكري الغرب وافتراءاتهم على السلوك الحربي للرسول ﷺ في محاولة للنيل منه ولكن هيهات، وكانت بعض هذه الردود من بني جلدتهم، وكان الرد عليها بطريقة علمية وموضوعية، وأعاننا علي ذلك العديد من علماء الإسلام الأفاضل المشهود لهم بالعلم ونخبة من فرسان الإسلام.

وأسأل الله العظيم، رب العرش العظيم، أن يوفقنا للتأدب بآداب خير البشر عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وأن يمن علينا بالتوفيق لاقتفاء آثاره، والسير على نهجه القويم، وأن يميتنا على سنته الطاهرة، ويحشرنا في زمرته العامرة.

ونرجو من المولى عز وجل أن يجعل النية خالصة لوجهه تعالى، وأن يقبلها محبة صافية لنبيه الكريم، وإسهاما ضئيلاً منا في نشر دعوة الحق والسلام التي أنزلها الله وطبقها رسول الإسلام، والسلام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أنور محمود زناتي
شعبة التاريخ الإسلامي
كلية التربية، جامعة عين شمس